القول بالتجسيم ومآلاته

الطالب الباحث سفيان أيت حساين
طالب باحث بسلك الدكتوراه: العقائد والأديان
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛

فهذا مقال مختصر لمسألة التجسيم في العقائد، تحدثت فيه عن ماهيته ودرجاته وأسباب القول به ومآلاته، فكانت المباحث أربعة، سلكت فيها مسلك الإيجاز والاختصار، والله ولي التوفيق ومنه العون والتحقيق.

المبحث الأول: تعريف الجسم لغة واصطلاحا:

الجسم لغة: قال ابن فارس:" الجيم والسين والميم يدل على تجمع الشيء"[1]، وقال ابن منظور:" الجسم جماعة البدن أو الأعضاء من الناس والإبل والدواب وغيرهم من الأنواع العظيمة الخلق"[2]. وقال في القاموس: " الجسم جماعة البدن أو الأعضاء من الناس وسائر الأنواع العظيمة الخلق"[3].

واصطلاحا: عرفه الحكماء بأنه: "هو الجوهر الممتد في الجهات الثلاثة" وعرفه المتكلمون بأنه" ما تركب من جواهر فردة"[4]. واختلف المتكلمون، فذهب الأشاعرة إلى كون الجسم هو المتحيز القابل للقسمة ولو في جهة واحدة، وذهب المعتزلة إلى كونه المتألف المنقسم إلى الجهات الثلاث.

ومن أشهر الفرق القائلة بالتجسيم كما في التبصير للإسفراييني:

- الفرقة الأولى: "السبئية" أتباع اليهودي الذي أظهر الإسلام عبد الله بن سبأ، فقد ألَّهت هذه الفرقة عليَّ بن أبي طالب، وشبهوه بذات الله، وقد ازدادوا اعتقاداً بهذا الإفك عندما حرَّقهم بالنار
- الفرقة الثانية: "الهشامية" أصحاب هشام بن الحكم الرافضي، يزعمون أن معبودهم جسم، وله نهاية، وحد طويل عريض عميق، طوله مثل عرضه.
- والفرقة الثالثة: "الهشامية" أصحاب هشام بن سالم الجواليقي، يزعمون أن ربهم على صورة الإنسان، وينكرون أن يكون لحماً، ودماً، ويقولون: إنه نور ساطع يتلألأ بياضا.

❖ الفرقة الرابعة: "اليونسية" أصحاب يونس بن عبد الرحمن القمّي.

❖ الفرقة الخامسة: "البيانية" أتباع بيان بن سمعان، وكان يقول: إن معبوده: نور، صورته صورة إنسان، وله أعضاء كأعضاء الإنسان، وأن جميع أعضائه تفنى إلا الوجه.

❖ الفرقة السادسة: "المغيرية" أتباع مغيرة بن سعيد العجلي، وكان يقول: إن للمعبود أعضاء، وأعضاؤه على صورة حروف الهجاء.

❖ الفرقة السابعة: "المنصورية" أتباع أبي منصور العجلي، وكان يقول: إنه صعد إلى السماء إلى معبوده، وإن معبوده مسح على رأسه وقال: يا بني بلغ عني.

❖ الفرقة الثامنة: "الخطابية" أتباع أبي الخطاب الأسدي، كانوا يقولون: إن أبا الخطاب الأسدي إله.[5]

ولما نقل محمد بن طاهر الإسفراييني مقالة هشام بن الحكم، وهشام الجواليقي، وأتباعهما في التجسيم قال: "والعاقل بأول وهلة يعلم أن من كانت هذه مقالته لم يكن له في الإسلام حظ".

المبحث الثاني: مراتب القول بالتجسيم:

لاشك أن المجسمة ليسوا على درجة واحدة في تقرير مذاهبهم، بل منهم من يصرح بذلك ومنهم من يؤول تقريره إلى ذلك، مثال الأول ما نقله الإمام الأشعري-رحمه الله- في المقالات عن هشام ابن الحكم قال:" أن الله جسم محدود عريض عميق طويل طوله مثل عرضه وعرضه مثل عمقه نور ساطع له قدر من الأقدار بمعنى أن له مقداراً في طوله وعرضه وعمقه لا يتجاوزه، في مكان دون مكان كالسبيكة الصافية يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ذو لون وطعم ورائحة ومجسة لونه هو طعمه وهو رائحته وهو مجسته وهو نفسه لون ولم يثبت لوناً غيره وأنه يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد، وحكى عنه أبو الهذيل أنه أجابه إلى أن جبل أبي قبيس أعظم من معبوده"[6].

ومثال الثاني تقرير ابن تيمية-رحمه الله- لصفة العلو، حيث قال: "فإنَّ مقصودنا أنْ لا يكون غيرُه أعلى منه، بل هو عالٍ على كل موجود، ثم بعد ذلك إذا قدَّرْتَ أنه ما منه شيءٌ إلا وغيره منه أعلى منه لم يقدحْ هذا في كماله، فإنه لم يَعْلُ على شيء منه إلا ما هو منه، لا مِن غيره، وأيضا فإن مثل هذا لا بد منه، والواجب إثبات صفات الكمال بحسب الإمكان، وأيضا فإن مثل هذا كمال في العلو، ولا يقدحُ في العالي أن يكون بعضه أعلى من بعض إذا لم يكن غيره عاليا عليه"[7].

المبحث الثالث: أسباب القول بالتجسيم:

لاعتقاد التجسيم أسباب كثيرة منها:

1- التقليد:

ولذلك أوجب بعض المتكلمين النظر، ذلك أن التقليد خطير خاصة في مسائل العقيدة، قال السنوسي نقلا عن ابن العربي كتابه الوسيط:" ولا يصح أن يقال إنه تعالى يعلم بالتقليد كما قال جماعة من المبتدعة، لأنه لو عرف بالتقليد لما كان قول واحد من المقلدين أولى بالاتباع والانقياد له من الاخر[8].

2- بعض مناهج التصنيف:

ذلك أن كثيرا ممن صنف في العقائد جمع بين متفرقات حقها أن لا تجمع، وإلى هذا أشار الإمام الغزالي في كتاب الإلجام عندما ذكر الوظائف السبعة التي تجب على كل من طرق سمعه نص موهم، وذكر من هذه الوظائف الإمساك عن الجمع بين المتفرقات حيث قال:" ولقد بعد عن التوفيق من صنّف كتابا في جمع الأخبار خاصة ورسم في كل عضو بابا فقال باب في إثبات الرأس وباب في اليد إلى غير ذلك، وسماه: كتاب الصفات. فإن هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوقات متفرقة متباعدة اعتمادا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معنا صحيحة، فإذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الإنسان صار جمع تلك المتفرقات في السمع دفعة واحدة عظيمة في تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه وصار الإشكال في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نطق بما يوهم خلاف الحق أعظم في النفس وأوقع، بل الكلمة الواحدة يتطرق إليها الاحتمال، فإذا اتصل بها ثانية وثالثة ورابعة من جنس واحد صار متواليا يضعف الاحتمال بالإضافة إلى الجملة ، ولذلك يحصل من الظن بقول المخبرين وثلاثة ما لا يحصل بقول الواحد، بل يحصل من العلم القطعي بخبر التواتر ما لا يحصل بالآحاد ويحصل من وكل ذلك نتيجة الاجتماع إذ يتطرق الاحتمال إلى قول كل عدل وإلى كل واحدة من القرائن ، فإذا انقطع الاحتمال أو ضعف فلذلك لا يجوز جمع المفترقات"[9]

3- دقة بعض العقائد السنية:

ذلك أن كثيرا من فروع العقائد السنية تخفى على الناس، كعقيدة تنزه الله تعالى عن المكان، وهذا ما حمل الإمام العز بن عبد السلام على امتناع تكفير المجسمة، قال: "ومن زعم أن الإله يحل في شيء من أجساد الناس أو غيرهم فهو كافر لأن الشرع إنما عفا عن المجسمة لغلبة التجسيم على الناس؛ فإنهم لا يفهمون موجودا في غير جهة بخلاف الحلول فإنه لا يعم الابتلاء به ولا يخطر على قلب عاقل ولا يعفى عنه"[10]

المبحث الرابع: مآلات القول بالتجسيم:

إن القول بالتجسيم له مآلات مستشنعة وخطيرة في مسائل الاعتقاد، من ذلك:

1- **أنه يفتح بابا عظيما لدعاة القول بوحدة الأديان:** ووجه ذلك أن اليهود مجسمة، قال تعالى: "وإذ قلتم يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون"[11]، قال الإمام البيضاوي في تفسير الآية: "فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ لفرط العناد والنعت وطلب المستحيل، فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا. قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم. وقيل صيحة. وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة"[12]، والنصارى كذلك لا خلاف في قولهم بذلك، ولا أدل على ذلك من تأليههم لعيسى عليه السلام الذي كان نبيا بشرا يمشي بينهم، فإذن نسبة هذا القول للإسلام سيؤول إلى إثبات عقيدة مشتركة بين الأديان الثلاثة، وهي عقيدة تجسيد الأله، وهذا سيقرب الدعاة إلى وحدة الأديان من سعيهم، ويفتح بابا من الشر عظيم.

2- **المجسم ضعيف في المناظرة:** فقد يحدث بأن يناظر المجسم خصما غير مسلم، زاعما أنه يدافع عن الإسلام، ونظرا لكون اللوازم الباطلة متكثرة في مذهبه فإنه وباحتمال كبير سيتعرض للإفحام مهما كان الخصم قوي الحجة حاد الذكاء، وربما شهد المناظرة كثير من غير المسلمين، وحينئذ يكون سببا في إعراضهم عن الإسلام، وفي هذا إفساد عظيم.

التعصب: ربما يستغرب إدراج التعصب ضمن مآلات التجسيم، إذ التعصب تشترك فيه كل المذاهب حتى السنية منها، وإنما الذي حملني على ذلك هو كثرته في هذه الطائفة من الناس عبر عصور متلاحقة، وهذه الكثرة لم تحدث اتفاقا بل لشيء في المذهب يوجبه، ولذلك كثر فيهم التشغيب والتلفيق حتى إنهم نسبوا بعض الأئمة إلى التجسيم وهم منه براء، قال السنوسي في شرح الوسطى: "وقد لطخت الحشوية بهذا المذهب الفاسد بعض أئمة أهل الاسلام، فربما نسبوه لأحمد بن حنبل رحمه الله إذ هم مقلدون له في الفروع، فأوهموا أنهم كما تبعوه في الفروع، اتبعوه في العقائد، وحاشاه أن تكون عقائده رحمه الله مثل عقائدهم إذ إمامته في علم التوحيد على طريق أهل السنة مجمع عليها ومناظرته لأهل البدع وامتحانه منهم في ذات الله تعالى مستفيض رحمه الله"[13].

الهوامش:

[1] مقاييس اللغة، لابن فارس، (457/1).

[2] لسان العرب، لابن منظور، (365/14).

[3] القاموس المحيط، للفيروزبادي، ص:1088.

[4] الحاشية الثانية، لمحمد حسنين مخلوف، ص: 52.

[5] ينظر في التبصير في الدين، للإسفاريني، ص: 119-120.

[6] مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري، 257.

[7] درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، (12/7).

[8] حاشية الدسوقي على أم البراهين، ص: 78.

[9] إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد الغزالي، ص:85.

[10] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، (202/1).

[11] سورة البقرة، 54.

[12] تفسير البيضاوي، (81/1).

[13] شرح العقيدة الوسطى، للسنوسي، ص: 122.